إرشاد الأئمة الأعلام
إلى فهم حقيقة جرح الأقران

مستورة رجا حجيلان المطيري
Email: Mastora.R@hotmail.com
Kuwait University, Department Tafseer and Hadith,
College of Sharia and Islamic Studies, Khalidiya, Kuwait.

ملخص البحث

يعتبر الجرح الذي يقع بين الأقران كغيره من الجروح، يخضع للقواعد والضوابط المقررة عند علماء الجرح والتعديل؛ الا أنه يستثنى منه الجرح الذي يقع بين الأئمة الأقران والذي يعرف بكلام الأقران، فهو جرح مردود غير معتمد، حيث إن سببه راجع إلى الطبع البشري الذي لا يسلم منه أحد، فالأقران قد يحدث بينهم في الغالب تنافر وخلاف يؤدي إلى جرح بعضهم البعض وهو أمر طارئ خارج عن الارادة. لذلك أرشد أهل العلم طلبة العلم وغيرهم إلى ضرورة وأهمية التأدب والتحفظ عند سماع جرح الأقران، وعدم اشاعته ونشره بين الناس حفظا لمكانة ومنزلة هؤلاء الأئمة، فكلام الأقران يطوى ولا يروى كما قرر ذلك الذهبي وغيره.

الكلمات المفتاحية: الجرح عند المحدثين، الجرح والتعديل، مكانة الأقران، حرج الأقران، ضوابط الجرح.

Critising Peer In The Hadith Science

Abstract

The phenomenon of criticism that occurs between peers in the science of hadith is similar to other criticisms and is subject to the rules and conditions decided upon by the criticism-correctional scholars. But there is a criticism that occurs between imams, is exceptional. And also the criticism of the peers is the exception of criticism. This is a kind of criticism that is rejected and disapproved. Because of it returns to the human nature that no one can escape from itself. There can often be disagreements among peers that lead to inversions and criticisms each other. And this is a situation that can happens suddenly and unintentionally. Because of the reason, muslim scholars of islam; students, and others, the necessity and importance of being judicious and cautious when they hear the criticism of their peers. The purpose of these imams is to protect their position and location. So they are advised not to announce the situation and not to spread it. As the ez-Zehebi and others have decided, the peer's theology is hidden and not narrated.

Keywords: Criticism according to muhaddis, criticism and correction, position of peers, peer criticism, the rule of Criticism.

المقدمة:

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الجرح الذي يقع بين الأقران يعد كغيره من الجرح، يخضع للقواعد والضوابط المقررة عند علماء الجرح والتعديل، إلا أنه يستثنى منه الجرح الذي يقع بين الأئمة وهو ما يعرف عند أهل العلم تأدباً مع الأئمة كلام الأقران. إذ لا يعتمد هذا النوع من الجرح، إنما ينظر إلى القرائن المحيطة به. وعادة ما يطوي هذا الجرح ولا ينظر فيه؛ لأن السبب الباعث إليه مرده الطبع

البشري الذي لا يسلم منه أحد إلا من عصم الله، لذا وجب عند سماعه أو النظر فيه التزام سلوك الأدب مع هؤلاء الأئمة، وعدم الخوض فيه توقيراً لهم وحفظاً لمكانتهم ومنزلتهم، وهذا بدوره يحفظ على الناس دينهم ودنياهم.

خلفية الموضوع ومشكلته

يتناول البحث مسألة «جرح الأقران»، والتي هي عبارة عن الطعن والغمز الذي يقع بين الأئمة بالرغم من مكانتهم العلمية وجلالة قدرهم. وهو موضوع قد تطرق إليه عدد من الباحثين المعاصرين – بحسب ما تيسر لي الاطلاع عليه – حيث اهتموا بذكر سببه والموقف منه، من غير ذكر للجانب الذي تميز به هذا الجرح عن غيره.

لذا رأيت أن أناقش في هذا البحث الكيفية التي يفهم بها حقيقة هذا الجرح من خلال استعراض أقوال أهل العلم. وقد ذكرت هذا الجانب في المبحث الثاني – المطلب الأول بعنوان «ميزة هذا الجرح عن غيره» -.

المبحث الأول: مفهوم جرح الأقران وأهميته

المطلب الأول: مفهوم جرح الأقران

الأقران جمع قرين، وأصلها مادة قرن ولها عدة معان في اللغة: المثل في السن، والأمة من الناس، وقيل: بمعنى المصاحب (ابن فارس 1986، 3:749؛ الاسكافي 1998، 2:705؛ ابن منظور د.ت، 3: 75).

أما معنى الأقران اصطلاحاً: فهم الرواة المتقاربون في السن والإسناد. قال الحاكم (ت 405هـ) (1989: 265): «إنما القرينان إذا تقارب سنهما وإسنادهما». وقال ابن دقيق العيد (ت 702هـ) (1996: 272): «هم المتقاربون في السن والطبقة». وقال العراقي(ت 801هـ): «القرينان من استويا في الإسناد والسن غالباً»» قال السخاوي: قوله «غالباً»: لأنهم ربما يكتفون كالحاكم بالتقارب في الإسناد وإن تفاوتت الأسنان» (السخاوي 1992، 4: 168).

يلاحظ في التعريف الاصطلاحي السابق أنه حتى يصح إطلاق مسمى أقران على الرواة لابد من توفر أمرين. الأول: التقارب في السن. والثاني: الاشتراك في الأخذ عن الشيوخ. فشمل التعريف الاصطلاحي بهذه الصورة كل الأقران وإن تفاوتت مراتبهم في الجرح والتعديل، وهذا في الحقيقة غير مراد في هذا البحث، فالأقران ليسوا على درجة واحدة من العلم دائماً.

قال الصنعاني (1182هـ) (د.ت، 2: 279): «واعلم أن مرادهم بالأقران المتعاصرون في قرن واحد المتساوون في العلوم». قوله: «المتساوون في العلوم» فيه إضافة على التعريف الاصطلاحي السابق حيث أخرج الاقران المتفاوته مراتبهم في العلم إذ منهم الضعيف ومنهم الثقة على الرغم من تقاربهم في السن واشتراكهم في الشيوخ. فخص الصنعاني الجرح الذي يقع بين الأقران فقط بالأئمة أما ما عداهم من الأقران فالجرح بينهم ينظر فيه على حسب ما هو مقرر عند علماء الجرح والتعديل.[1]

وهذا ما أرشد إليه ابن عبد البر (ت 463هـ) (1998، 2: 1093) ووضحة وأزال اللبس فيه حيث قال: «وهذا باب قد غلط فيه كثير من الناس، وضلت به نابتة جاهلة لا تدري ما عليها في ذلك، والصحيح في هذا الباب أن من صحت عدالته وثبتت في العلم أمانته وبانت ثقته وعنايته بالعلم لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته ببينة عادلة تصح بها جرحته على طريق الشهادات، والعمل فيها من المشاهدة والمعاينة لذلك بما يوجب تصديقه فيما قاله

لبراءته من الغل والحسد والعداوة والمنافسة وسلامته من ذلك كله أو ذلك كله يوجب قبول قوله من جهة الفقه والنظر وأما من لم تثبت إمامته ولا عرفت عدالته، ولا صحت بعدم الحفظ والاتقان روايته فإنه ينظر فيه إلى ما اتفق أهل العلم عليه أو يجتهد في قبول ما جاء به على حسب ما يؤدي النظر إليه».

المطلب الثاني: أهمية النظر في جرح الأقران

تظهر أهمية النظر في جرح الأقران واعتباره وقبوله فيما بعد إن صح لأجل المعاصرة والمجالسة، فهم يعرفون ما لا يعرفه الغير. قال الصنعاني (د.ت، 2: 146): «فإنه لا يعرف حال الشخص بجرح أو عدالة إلا من عاصره، ولا طريق إلى العلم بأحواله لمن في عصره ممن غاب عنه ولمن يأتي بعده إلا المعاصرين، إذ من قبلهم لا يعلمون وجوده ومن بعدهم لا يعرفونه إلا بنقل الأخبار عمن عاصره وشاهده وجالسه وأخذ عنه».

ومع ذلك لا يمكن الجزم أن المعاصرة أو المقارنة فقط هي السبب الحقيقي وراء الجرح الذي يقع بين الأقران وإنما السبب هو الطبع البشري الذي يقتضي المنافسة والحسد والخلاف وغير ذلك. قال الصنعاني (د.ت، 2: 279): «فالأولى إناطة ذلك – أي الجرح – بمن علم أن بينهما منافسة وتحاسداً، فيكون ذلك سبباً لعدم قبول بعضهم في بعض، لا لكونه من الأقران».

وهو الضابط الذي أشار إليه اللكنوي (1988: 276) في التمييز بين جرح الأقران المقبول والغير مقبول حيث قال: «فائدة: قد صرحوا أن كلمات المعاصر في المعاصر غير مقبولة، وهو كما أشرنا بما إذا كانت لغير حجة وبرهان، وكانت مبنية على التعصب والمنافرة، فإن لم يكن هذا فهي مقبولة بلا شبهة فاحفظه فإنه مما ينفعك في الأولى والأخرة». لأجل ذلك لم يعتد أهل العلم لجرح هؤلاء الأقران كما سيأتي:

أولاً: قال مكحول الأزدي: «ما زلت مضطلعاً على من ناوأني حتى عاونهم علي رجاء بن حيوة، ذلك أنه سيد أهل الشام في أنفسهم» (الذهبي 2006، 8: 127). قال الذهبي (2006، 8: 128): «كان ما بينهما فاسداً، وما زال الأقران ينال بعضهم من بعض، ومكحول ورجاء إمامان، فلا يلتفت إلى قول أحدهما في الآخر».

ثانياً: الكلام الذي بين قتادة ويحيى، فقد قال يحيى بن كثير في قتادة حيث روى ابن عبد البر (1998، 2: 1109) بسنده إلى يحيى بن أبي كثير: «لا يزال أهل البصرة بشر ما أبقى الله فيهم قتادة». وقال قتادة عنه: «متى كان العلم في السماكين». علق ابن عبد البر (1998، 2: 1109) قائلاً: «يعرض بيحى بن أبي كثير وكان أهل بيته سماكين».

ثالثاً: ما وقع بين ربيعة الرأي وأبي الزناد حيث ذكر الذهبي رأي ربيعة فيه فقال عنه: «ليس بثقة ولا رضي». فقال الذهبي (د.ت، 2: 418) معلقاً على رأي ربيعة السابق ما يلي: «لا يسمع قول ربيعة فيه، فإنه كان بينهما عداوة ظاهرة».

رابعاً: ما ذكره الذهبي (د.ت، 2: 81) في ترجمة عفان بن مسلم الصفار وقدح سليمان بن حرب له حيث قال: ذكر ابن عدي قول سليمان بن حرب: «ترى عفان كان يضبط عن شعبة، والله لو جهد جهده أن يضبط عن شعبة حديثاً واحداً ما قدر، كان بطيئاً رديء الحفظ بطئ الفهم». قال الذهبي (د.ت، 3: 81) معلقاً: «عفان أجل وأحفظ من سليمان أو هو نظيره، وكلام النظير والأقران ينبغي أن يتأمل ويتأنى فيه».

المبحث الثاني: فهم حقيقة السبب المفضي إلى جرح الأقران

المطلب الأول: مزيه هذا الجرح عن غيره

إن الناظر والمتأمل في جرح الأئمة الأقران بعضهم لبعض، ليقف على حقيقة مفادها أن هذا الجرح لا يقوم على حجة واضحة بينة كما هو مقرر عند علماء الجرح والتعديل، وإنما مرده إلى الطبع البشري وهذا لم يسلم منه أحد إلا الأنبياء والصديقين. قال الذهبي (ت 748هـ)(2006، 7: 33): «لسنا ندعي في أئمة الجرح والتعديل العصمة من الغلط النادر، ولا من الكلام بنفس حاد فيمن بينهم وبينه شحناء وإحنه، وقد علم أن كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدر، ولا عبرة به، ولا سيما إذا وثق الرجل جماعة يلوح على قولهم الأنصاف».

لأجل ذلك تميز هذا النوع من الجرح بأمرين:

الأول: أنه موجود في كل عصر، أشار إلى ذلك الذهبي (د.ت، 1: 111) فقال: «ما علمت عصراً من الأعصار يسلم أهله من ذلك – أي: جرح الأقران – سوى الأنبياء والصديقين».

الثاني: أنه لا يؤثر على مكانة ومنزلة كل من الجارح والمجروح، كما لا يتعارض مع ما اتصفوا به من إيمان وتقوى. فقد قال ابن الصلاح (ت 643هـ)(1986: 391): عن جرح النسائي لأحمد بن صالح ما يلي: «قلت النسائي إمام حجة في الجرح والتعديل، وإذا نسب مثله إلى مثل هذا كان وجهه أن عين السخط تبدي لها مساوئ لها في الباطن مخارج صحيحة تعمي عنها بحجاب السخط لا أن ذلك يقع من مثله متعمداً لقدح يعلم بطلانه، فاعلم هذا فإن من النكت النفيسة المهمة».

وقال السخاوي (ت 902هـ)(1992، 3: 362): «لأن الفلتان من الأنفس لا يدعى العصمة فيها، فإنه ربما حصل غضب عمن هو من أهل التقوى، فبدرت منه بادرة لفظ، فحبك الشيء يعمي ويصم، إلا أنهم مع جلالتهم ووفور ديانتهم تعمدوا القدح بما يعلمون بطلانه حاشاهم الله وكل تقي من ذلك». مما يدل على أن الجرح الذي يقع بين الأقران سببه أمراً طارئاً . وإن كان في بعض الأحيان يتطور الجرح إلى مشاحنات ومشاجرات دائمة بين الأقران، كما حصل بين أبو نعيم وابن مندة والسخاوي والسيوطي، ومع ذلك ل يعتد به أهل العلم.

فالغالب بين الأقران الود والمسامحة والعفو دل على ذلك الآتي:

أولاً: ما قاله ابن حبان عن جرح مالك لابن إسحاق: «أما مالك فإنه كان منه مرة واحدة، ثم عاد له إلى ما يحب، وذلك بأنه لم يكن في الحجاز أحد أعلم بأنساب الناس وأيامهم من ابن إسحاق، وكان يزعم أن مالكاً من موالي أي أصبح، وكان مالك يزعم أنه من أنفسها، فوقع بينهما لذلك منافرة، فلما صنف مالك الموطأ قال ابن إسحاق ائتوني به فأنا بيطاره، فنقل ذلك إلى مالك فقال: هذا دجال من الدجاجلة يروي عن اليهود، وكان بينهما ما يكون بين الناس، حتى عزم ابن إسحاق الخروج إلى العراق فتصالحا حينئذ، وأعطاه مالك عند الوداع خمسين ديناراً ونصف ثمرته تلك السنة، ولم يقدح فيه مالك من أجل الحديث، وإنما كان ينكر عليه تتبعه غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم من أولاد اليهود الذين أسلموا، وحفظوا قصة خيبر وقريظة والنضير، وما أشبه ذلك من الغرائب عن أسلافهم، وكان ابن إسحاق يتبع هذا عنهم ليعلم ذلك من غير أن يحتج بهم، وكان مالك لا يرى الرواية إلا عن متقن وصدوق» (ابن حبان 1975، 7: 382).

ثانياً: تزكية الأقران بعضهم لبعض منها ما قاله الإمام أحمد بن حنبل في إسحاق بن راهويه: «لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق وإن كان يخالفنا في أشياء فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً» (الذهبي 2006، 11: 371). وأيضاً ما قاله يحيى بن سعيد القطان في الشافعي وهو من أقرانه: «إني لأدعو الله عز وجل للشافعي في كل صلاة أو في كل يوم لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسداد فيه» (الخطيب البغدادي د.ت: 82).

ثالثاً: ما اشتهر بين الأقران من رواية بعضهم عن بعض كما هو في رواية الأقران والمديح كرواية الزهري وابن الزبير ومالك والأوزاعي بل وقد يجتمع جماعة من الأقران في حديث واحد كما روى أحمد بن حنبل عن أبي خيثمة زهير بن حرب، عن يحيى بن معين عن علي بن المديني عن عبيد بن معاذ عن أبيه عن أبي بكر بن حفصة عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يأخذن من شعورهن حتى يكون كالوفرة فأحمد والأربعة فوق خمستهم إقران» (السيوطي د.ت، 2: 217-219). فدل ما سبق على أن الجرح بين الأقران أمر طارئ وليس متعمد وإن تطور في بعض الأحيان إلى مشاحنات وخصومة فهو على الندرة وليس على الغالب، كما حصل بين السخاوي والسيوطي فقد قال عبد الرؤوف ظفر (د.ت: 2/ 5): «قد يظن البعض من خلال اطلاع جزئي على ما كان دائراً بينه وبين أقرانه أن السخاوي كان سيء العلاقة مع جميع أقرانه، والحقيقة أنه كان جيد العلاقة مع أكثرهم سوى بعض الاستثناءات...، فكبار أقرانه الذين كانت لهم المنزلة الاجتماعية والعلمية العليا كانوا على علاقة وطيدة معه، يحكمها الوداد، وخلال تصفح كثير من التراجم المنثورة في كتبه المختلفةنلاحظ كم كانت العلاقة قوية بينه وبين جل أقرانه».

المطلب الثاني: حقيقة سبب جرح الأقران.

إن مجرد النظر في القرائن المحيطة بجرح الأقران كاف في الدلالة على الدوافع الحقيقية لهذا الجرح، وهي دوافع وأسباب في مجملها تعود إلى أمرين. الأول منهما: التنافر الذي يقع بين الأقران. والثاني: الخلاف في المنهج والاعتقاد.

أولاً: التنافر بين الأقران

قد يقع بين الأقران تنافراً كبيراً وهو أمر خفي نفسي باطني يصعب البوح به أو الاطلاع عليه، مرده سوء فهم أو غيره أو تنافس فيفضي ذلك غالباً إلى الحسد[2] ثم الخصومة والمشاحنة والعداوة.

فقد ذكر ابن عبد البر (1998، 2: 1087) في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» أحد أسباب هذا التنافر وهو الحسد حيث عقد باباً كاملاً عنون له بقوله: «باب حكم قول العلماء بعضهم في بعض» واستفتحه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء». ومن الأمثلة التي تدل على وقوع الجرح بين الأقران لأجل هذا السبب ما يلي:

أولاً: ما وقع بين النسائي وأحمد بن صالح المصري من سوء فهم أدى إلى تنافر وجرح كل منهما للآخر، حيث قال ابن حجر (1986: 405) في ترجمة النسائي التي ساقها في كتابه هدي الساري: «قال أبو جعفر العقيلي كان أحمد بن صالح لا يحدث أحداً حتى يسأل عنه فلما أن قدم النسائي مصر جاء إليه، وقد صحب قوماً من أهل الحديث لا يرضاهم أحمد فأبى أن يحدثه، فذهب النسائي فجمع الأحاديث التي وهم فيها أحمد، وشرع يشنع عليه، وما ضره ذلك شيئاً، فهو إمام ثقة من الحفاظ المشهورين بمعرفة الحديث».

ثانياً: ما وقع بين الحسن بن علي بن شبيب المعمري وصاحباه موسى بن هارون البغدادي وفضلك الرازي من المنافرة سببها الحسد وذلك أن الحسن بن علي بن شبيب المعمري وموسى بن هارون البغدادي وفضلك الرازي كلهم كانوا يسمعون من الشيوخ إلا أن الحسن تفرد بأحاديث عنهم، فاتهموه بالكذب ورواية أحاديث شاذة.

قال موسى بن هارون البغدادي: «استخرت الله سنتين حتى تكلمت في المعمري، وذاك أني كتبت معه عن الشيوخ، وما افترقنا فلما رأيت تلك الأحاديث قلت من أين أتى بها» (ابن حجر 2001، 2: 414-418).

وقد بين الحسن بن علي المعمري سبب تفرده بتلك الأحاديث حيث قال: «قد عرف من عادتي أن كنت إذا رأيت حديثاً غريباً عن شيخ لا أعلم عليه، إنما كنت أقرأه من كتاب الشيخ واحفظه فلا أمل لهذا».

وقال أيضاً: «كنت أتولى الانتخاب فإذا مر بي حديثاً غريباً قصدت الشيخ وحدي فسألته عنه».

علّق ابن عدي على الكلام السابق فقال: «سمعت عبدان يقول: سمعت فضلك الرازي وجعفر الجنيد يقولان: المعمري كذاب، ثم قال لي عبدان: حسداً؛ لأنه كان رفيقهم، فكان المعمر إذا كتب حديثاً غريباً لا يفيدهما، وما رأيت صاحب حديثاً في الدنيا مثل المعمر».

ثالثاً: وقال ابن أبي حاتم حدثنا عبد الرحمن قال قرئ على العباس بن محمد الدوري قال سمعت يحيى بن معين: بلغنا عن مالك أنه قال: عجباً من شعبة هذا الذي ينتقي الرجال وهو يحدث عن عاصم بن عبيد الله»، ومالك من أقران شعبة (ابن أبي حاتم د.ت، 1: 22).

الأمر الثاني: الخلاف في المنهج والاعتقاد

أيضاً من أسباب جرح الأقران الخلاف في المنهج والاعتقاد، كالاختلاف في مسألة مذهبية أو في عقدية، وهو سبب ظاهري أصله التفاوت في العلم والفهم بين هؤلاء الأئمة إذ كثيراً ما يقود مثل هذا الخلاف إلى التعصب والتشدد في الرأي، والحامل عليه في الحقيقة عند هؤلاء الأئمة اجتهادهم في الدفاع عن الدين والذب عنه. قال السخاوي (902هـ)(1992، 3: 325): «وجر هذا الاختلاف إلى أحكام غير سديدة وأراء في الرواة غير معتبرة». ومن الأمثلة التي تدل على الجرح بسبب اختلاف المذهب بما يلي:

أولاً: الخلاف الذي وقع بين ربيعة وأبي الزناد: فقد ذكر الذهبي (د.ت، 2: 418) في ترجمة أبي الزناد: «وقال ربيعة فيه: ليس بثقة ولا رضي». قال الذهبي (د.ت، 2: 418): «لا يسمع قول ربيعة فيه فإنه كان بينهما عداوة ظاهرة». والخلاف بينهما سببه اختلاف المشرب فربيعة من أهل الرأي وأبو الزناد من أهل الأثر.

ثانياً: وكذلك الخلاف الذي حدث بين مالك بن أنس وابن أبي ذئب، حيث رد مالك العمل بحديث «البيعان بالخيار» مع أنه رواه في الموطأ فقال: «ليس البيعان بالخيار». قالوا لابن أبي ذئب إن مالكاً يقول: ليس البيعان بالخيار، فقال ابن أبي ذئب هذا خبر موطوء في المدينة وكان مالك يقول: «ليس البيعان بالخيار» قال ابن أبي ذئب: يستتاب مالك فإن تاب وإلا ضربت عنقه» (ابن حنبل 2006، 1: 539).

أما الخلاف في الاعتقاد، ويحدث بين الأئمة كثيراً لكن لا يعتد به، قال عنه ابن حجر: «ممن ينبغي أن يتوقف في قبول قوله في الجرح من كان بينه وبين من جرحه عداوة سببها الاختلاف في الاعتقاد ...» (ابن حجر 1986: 385).

ومن أشهر الأمثلة التي تدل على هذا النوع من الخلاف ما وقع بين ابن منده وأبو نعيم بسبب مسألة اللفظ بالقرآن وهو من أشهر الخلافات التي وقعت بسبب الاعتقاد.

قال الذهبي (د.ت، 6: 66): «أقذع الحافظ أبو نعيم في جرحه، لما بينهما من الوحشة، ونال منه واتهمه فلم يلتفت إليه لما بينهما من العظائم نسأل الله العفو، فلقد نال ابن منده من أبي نعيم، وأسرف أيضاً». وقال أيضاً: «البلاء الذي بين الرجلين هو الاعتقاد».

وقال كذلك: «كان أبو عبد الله بن منده يقذع في المقال في أبي نعيم لمكان الاعتقاد المتنازع فيه بين الحنابلة وأصحاب أبي الحسن، ونال أبو نعيم أيضاً من أبي عبد الله في تاريخه، وقد عرف وهن كلام الأقران المتنافسين بعضهم في بعض نسأل الله السماح» (الذهبي 2006، 17: 462).

المبحث الثالث

موقف أهل العلم من جرح الأقران

أرشد العلماء طلبة العلم وغيرهم إلى التأني وعدم الاندفاع وراء الأقوال المتعلقة بجرح هؤلاء الأئمة الأقران، بل وحذروا من مغبة وعاقبة من يخوض في هذا الأمر من دون علم وفهم وإدراك لما يحدث بين هؤلاء الأئمة من كلام.

قال اللكنوي (1988: 264): «وقد ابتلى بهذه البلية جمع كثير من علماء عصرنا المشهورين بالفضائل العلية، وقلدهم في ذلك أكثر العوام، الذين هم كالأنعام، بل زادوا نغمة في الطنبور، وزادوا ظلمة في الديجور، فإنهم لما وفقهم الله بمطالعة كتب التاريخ وأسماء الرجال، ولم يوفقهم للغوص والخوض والاطلاع على ما مهده نقاء الرجال: تجاسروا وبادروا وتجاهلوا وتخاصموا، وأطلقوا لسان الطعن على الأئمة الثقات، والأجلة الأثبات، مستندين بما صدر في حقهم من معاصريهم ومنافريهم أو أعاديهم ومحقريهم، أو ممن له تعنت وتعصب بهم، فليحذر العاقل من أن يكون بمثل هذا التجاسر مغبوناً ومفتوناً، ومن أن يكون ﴿من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ (سورة الكهف: 104)» .

ولأجل أن يسلم طالب العلم وغيره مما يحصل بين الأقران من جرح أو كلام وينأوون بأنفسهم بعيداً عن مثل هذه الأمور عليهم اتباع المنهج الآتي:

أولاً: معرفة مكانة ومنزلة هؤلاء الأئمة.

ثانياً: التزام الأدب مع الأئمة.

المطلب الأول

معرفة مكانة ومنزلة الأئمة الأقران

ينبغي لمن وقف على جرح الأئمة الأقران ألا يتجاسر عليهم بالطعن فيهم أو التقليل من شأنهم ومنزلتهم، فهؤلاء أئمة اشتهرت عدالتهم واستفاضت فلا يقبل فيهم قول قائل اطلاقاً وإنما عليه أن ينظر في القرائن المحيطة بالجرح الذي وقع بينهم ليعرف حقيقة هذا الجرح وأسبابه. قال السبكي (771هـ)(1413، 1: 195-196.): «معنا أصلان نستصحبها إلى أن نتيقن خلافهما: أصل عدالة الإمام المجروح الذي قد استقرت عظمته، وأصل عدالة الجارح الذي يُثْبِتِ فلا يلتفت

إلى جرحه، ولا يجرحه بجرحه، فاحفظ هذا المكان فإنه من المهمات». وذلك لأن عاقبة من يخوض في جرح الأقران وخيمة وشديدة حذر منها أهل العلم في أكثر من موضع وهي كالآتي:

أولاً: ما قاله ابن عبد البر (1998، 2: 1118): «ومن لم يحفظ من أخبارهم إلا ما نذر من بعضهم في بعض على الجسد والهفوات والغضب والشهوات دون أن يعني بفضائلهم ويروى مناقبهم حرم التوفيق ودخل في الغيبة وحاد عن الطريق جعلنا الله وإياك ممن يستمع القول فيتبع أحسنه».

ثانياً: ما قاله الحافظ ابن عساكر (571هـ)(1404: 29): «اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، فإنه من أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب، فليحذر الذين يخلفون عن أمره أن يصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم».

المطلب الثاني: التزام الأدب مع الأئمة الأقران

إن التزام الأدب مع الأئمة من الأهمية بمكان ففيه دليل على وعي وأدراك من يسمع الجرح في الأقران فالأدب في حقيقته علم، قال ابن القيم (751هـ)(1996، 2: 376): «علم الأدب هو علم إصلاح اللسان والخطاب وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه عن الخطأ والخلل وهو شعبة من الأدب العام، وبناء عليه يكون الأدب». الأدب مع الأئمة صورته كالآتي:

1) حسن تأويل الكلام الذي يقع بين الأقران.
2) الأعراض عنه وعدم الخوض فيه.

أما الأول وهو حسن تأويل الكلام فالمراد به حسن الظن بهم وحمل كلامهم على الخير وتوقيرهم والتأدب معهم عند ذكرهم.

قال السبكي(1413، 2: 287): «وينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين وألا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى ببرهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وحسن الظن فدونك». وقال أيضاً: «ولأقوالهم محامل، وربما لا يفهم بعضها، فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوت عما جرى بينهم كما يفعل فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم».

الأمر الثاني: الإعراض عنه وعدم الخوض فيه.

ينبغي على طلبة العلم وغيرهم أن يعرضوا عن جرح الأقران ولا يعتنوا بنقله وأن يلتزموا مقولة ابن عباس رضي الله عنهما: «استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تعايراً من التيوس في زربها[3] (ابن عبد البر 1998، 2: 1090). وعن مالك بن دينار أنه قال: «يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم من بعضه» (ابن عبد البر 1998، 2: 1092).

وذلك لأن الجرح الذي يقع بين الأقران كما ذكرت سابقاً لا يبني على حجة واضحة وإنما منشأه الطبع البشري، فالخوض فيه إعراض عن منهج السلف الصالح ومدخلاً للطعن واللمز بهؤلاء الأئمة والتقليل من شأنهم عند الأمة، فلا يستفاد منهم ولا يقتدي بهم، وهذا بدوره يفتح باب الشر والفتن والبلاء على الناس.

قال ابن عبد البر (1998، 2: 1117): «وقد كان بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجله العلماء عند الغضب كلام هو أكثر من هذا، ولكن أهل العلم والفقه لا يلتفون إلى ذلك لأنهم بشر يغضبون ويرضون، والقول في الرضا غير القول في الغضب».

قال السبكي(1413هـ، 2: 287): «لا يزال طالب العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين ويقضي لبعضهم على بعض، فإياك ثم إياك أن تصغي إلى ما اتفق بين أبي حنيفة وسفيان الثوري، وبين مالك وابن أبي ذئب، أو بين أحمد بن صالح والنسائي، أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وهلم جرا إلى زمان العز بن عبد السلام والتقي ابن السلام، فإنك إذا اشتغلت بذلك خشيت عليك الهلاك فالقوم أئمة أعلام».

والخلاصة فيما سبق ذكره تتمحور في القاعدة التي قعدها الذهبي (1992: 4) وهي أن كلام الأقران يطوى ولا يروى حيث قال: «كثير من كلام الأقران بعضهم في بعض ينبغي أن يطوى ولا يروى، ويطرح ولا يجعل طعناً ويعامل الرجل بالعدل والقسط»، حتى لا يعتني بطلب ما فيه هلاكه وحرمانه من العلم وبركته.

الخاتمة

وفي ختام البحث أود الإشارة إلى أبرز النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال دراستي للموضوع، وهي كالآتي:

1 – النتائج:

أولاً: أن جرح الأقران وإن كان كغيره من الجرح حيث ينظر فيه بحسب ما جاء عند أهل العلم إلا أنه لا يعتمد عليه لدلالة القرائن المحيطة به على بطلانه وعدم صحته.

ثانياً: أن جرح الأقران له أسبابه ودوافعه الخاصة منها ما هو خفي ومنها ما هو ظاهر إلا أنها كلها ترجع إلى الطبع البشري وهو أمر طارئ غير ثابت لذا لم يعتمده أهل العلم ولم يعتدوا به.

ثالثاً: لابد من الحذر من الخوض في جرح الأقران وعدم إشاعته أو نقله فإن لكلامهم محامل ومقاصد لا تفهم.

رابعاً: ضرورة وأهمية التأدب مع الأئمة الأقران عند سماع أو النظر في الجرح الموجه إليهم حتى لا يحرم طالب العلم بركته.

2 – توصيات:

أولاً: التزام منهج أهل العلم في بالتحذير من الخوض في جرح الأقران سواء من مضى منهم أو المعاصرين وذلك حتى لا تنصرف أو تضيع جهود أهل العلم فيما لا فائدة ولا نفع فيه.

ثانياً: الاهتمام ببيان من هم هؤلاء الأئمة وجهودهم القيمة في خدمة السنة النبوية وإشاعتها بين الناس حفظاً لمكانتهم ومنزلتهم بين الناس.

Endnotes:

1. مثال ذلك: رأي مالك في ابن سمعان «عبد الله بن زياد بن سمعان المخزومي» وهو من أقرانه، فقد جرحه مالك وقال عنه: كذاب.

فعن عبد الرحمن بن القاسم قال: سألت مالكاً عنه فقال: كذاب، «الجرح والتعديل» (60/5).

= قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب (416/1): «متروك اتهمه بالكذب أبو داود وغيره».

2. ومما ينبغي الإشارة إليه أن الحسد الذي يقع بين الأقران ليس الحسد المذموم المنهي عنه شرعاً، وإنما هو حسد نشأ

بسبب التنافس على المراتب وهذا لا يسلم منه أحد، كان شعبة بن الحجاج رضي الله عنه يقول: «احذروا غيرة أصحاب الحديث بعضهم على بعضهم فهم أشد تغايراً من التيوس... ».

3. زربها: حظيرة الغنم، المعجم الوسيط (ص416).

المراجع

ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي، الجرح والتعديل، حيدر آباد، الهند ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، أبوعمرو، تقي الدين، علوم الحديث، تحقيق نور الدين عتر، دمشق، دار الفكر، 1986م.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1416 هـ - 1996م.

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، الثقات، تحقيق السيد شرف الدين، طبعة دار الفكر، 1975م.

ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، دار المعرفة.

ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، اعتناء إبراهيم الزيبق وعادل مرشد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2008م.

ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، حقق بإشراف محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ط2، 2001.

ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني، هدي الساري مقدمة فتح الباري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الريان للتراث، 1986م.

ابن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، دار الرياض، القبس، ط2، 2006م.

ابن دقيق العيد، قي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، الاقتراح في بيان الاصطلاح، تحقيق عامر حسن صبري، بيروت، دار البشائر الإسلامية، 1996م.

ابن عبد البر، بو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، السعودية، دار ابن الجوزي، ط4، 1998م.

ابن عدي، أبو أحمد بن عدي الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، وعبد الفتاح أبو سنة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م.

ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1404هـ.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، مجمل اللغة لابن فارس، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1406هـ - 1986م.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب، بيروت، دار لسان العرب.

أبو بكر البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، مسألة الاحتجاج بالشافعي، تحقيق خليل إبراهيم ملا خاطر، باكستان، المكتبة الأثرية.

الاسكافي، مختصر كتاب العين، تحقيق هادي حسن حمودي، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، 1998م.

الجنكي، محمد الخضر بن سيد عبدالله بن أحمد الجكني الشنقيطي، كوثر المعاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1415 هـ - 1995م.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، معرفة علوم الحديث، شرح ومراجعة سعيد محمد اللحام، بيروت، دار مكتبة الهلا، 1989م.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم، تحقيق محمد إبراهيم الموصلي، بيروت، لبنان، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، 1412هـ - 1992م.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، علق عليه محمد أيمن الشيراوي، القاهرة، دار الحديث، 2006م.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق د/ محمود الطنحاي، وعبد الفتاح الحلو، القاهرة، دار هجر، 1413هـ.

السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، تحقيق علي حسين علي، دار الإمام الطبري، ط2، 1992م.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق بو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة.

الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، توضيح الأفكار، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

ظفر، عبد الرؤوف وآخر، علاقة الحافظ شمس الدين السخاوي بأقرانه الظاهرة الأسباب النتائج، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، عدد 2.

اللكنوي، بو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي، الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط2، 1988م.

المجمع، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، قام بإخراج هذه الطبعة إبراهيم أنيس وعبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الأحمد، القاهرة.